حين مالت الشمس نحو الافق الغربي وغابت فيه، انتشر في الغابات وسواحل الانهار نقيق الضفادع وزقزقة العصافير، ثم ساد الدنيا ليل حالك الظلام. آنذاك خرج ملك المملكة برفقة «حسن ممندي»[1] متنكرين بحيث لا يتعرف عليهما احد من الرعية او غيرهم، وكالعادة بعد ان تنكرا غادرا القصر قصر الملك وتوجها الى المدينة. ومن بعيد، عندما صارا على مقربة منها، رايا شبحا في الظلام يتقدم نحوهما، وبموازاته في مكان آخر رايا شبحا ثانيا يتقدم نحوهما ايضا، وكان بين الشبحين جدول من الماء صغير يمتد بدوره باتجاههما. واقترح «حسن ممندي» على الملك ان يتوقف لمراقبة الشبحين، فتوقفا واختفيا في موضع لا يراهما فيه احد وبالاخص الشبحان. ورويدا رويدا اقترب منهما الشبحان، ولما صارا بالقرب منهما: كان احد الشبحين امراة والآخر كان رجلا، قالت المراة للرجل:

- هيا، تقدم، اعبر الجدول.

قال الرجل:

- لكن الجدول عريض، واخشى ان اقع فيه واتبلل.

قالت المراة:

- انتظر لآتي بشيء تستعين به للعبور.

ذهبت المراة، وانتظر الرجل، وبعد لأي عادت المراة وفي يدها جسم كروي الشكل، القت به في وسط الجدول، وقالت للرجل:

- هيا اعبر، ما عليك الا ان تضع قدميك عليه، فتعبر. قال الرجل:

- ما هذا الشيء الذي القيت به في الجدول؟

قالت المراة بلا مبالاة:

- انه راس الشقي زوجي، لقد قطعته للتو لأتخلص منه نهائيا.

وحين سمع الرجل ذلك، ارتجف، وارتجف من هول الفعل الملك و «حسن ممندي» ايضا، قال الرجل، وقد تراجع خطوات عن الجدول:

- كلا لن اتقدم، لانك ستجزين عنقي ايضا وتقدمين راسي لأول عشيق تلتقينه في غيابي.

قال ذلك. وتقهقر بسرعة ثم اختفى في دياجير الظلمات تلاحقه شتائم المراة وكلامها البذيء.

ورجعت المراة من حيث اقبلت. وقام الملك و «حسن ممندي» يراقبانها ويتعقبان اثرها، فسارا وراءها وهي لا تعلم، دخلت ازقة وخرجت من ازقة، ووراءها الملك و «حسن ممندي» وعند منعطف ما دخلت بيتا واختفت فيه ولما كانت الدنيا ليلا بلون الفحم، فقد امر الملك «حسن ممندي» ان يرسم علامة على الباب الذي دخلت منه المراة الى البيت، فرسم «حسن ممندي» بلون احمر علامة ضرب على الباب الذي دخلت منه المراة الى البيت، كي يتعرفا بواسطتها على المراة المجرمة في الصباح ويعاقبانها على الاثم الذي اقترفته في الليل. بعد ذلك عاد الملك و «حسن ممندي» الى القصر.

ولنعد الآن الى المراة التي توجست شرا والتي قالت مع نفسها «لألقي نظرة على الزقاق، فربما هناك من يراقبني» وعادت الى الزقاق والقت حواليها نظرة متفحصة فلم يكن هناك سوى الظلام الكثيف، لكنها عندما ارادت الرجوع الى الداخل لمحت علامة الضرب مرسومة باللون الاحمر على الباب، وعلمت بأن العلامة رسمت للتو، فأيقنت بأنه كان هناك من يراقبها، ولم تنتظر طويلا فقامت في الليلة نفسها برسم العلامة نفسها وباللون نفسه على مئات الابواب في المدينة، حتى اذا ما فرغت منه عادت

الى البيت مطمئنة .

وفي الصباح ، أمر الملك «حسن ممندي» ان يأخذ معه قوة من الشرطة لاعتقال المرأة القاتلة ، فجرد «حسن ممندي» قوة من الشرطة الى حيث توجد العلامة الحمراء التي رسمها ليلا ، ولما وصل الى المدينة شاهد العلامة نفسها وفي اللون نفسه مرسومة على جميع ابوابها تقريبا ، بحيث ضاع من بين الابـواب الباب المطلوب . وهكذا رجع «حسن ممندي» حزينا مهموما الى الملك ، فأخبر الاخير بما جرى وقال :

- مولاي ، ان العلامة الحمراء مرسومة فوق جميع الابواب في المدينة . بحيث ان العـلامة التي رسمنـاها ضـاعت من بين العلامات ، واخشى ما اخشاه ان ننزل العقاب ببريئة من النساء .

وغضب السلطان غضبا شديـدا وقال «لحسن ممنـدي» : سأغادر المملكة لمدة شهر ، وحين اعود تكون قد ضربت اعناق كل الاناث بدءا بالاناث من أسرتي .

وامتطى السلطان فرسا له وغادر المملكة حزينا وفي قرارة نفسه كان يلعن نساء الارض قاطبـة . ولما سـافر وغـاب ، حار «حسن ممندي» من أمر السلطان الذي لا يرد ، كيف يقتل النسوة كافة جراء الاخذ بجريمة امـرأة واحدة؟ هـل النسوة جميعـا سواسية ؟ اهن جميعا قاتلات مثل المرأة التي قطعت رأس زوجها والقت به في الماء كي يستعين به عشيقها في العبور ؟ وعلم «حسن ممندي» ان عصيانه لأمر الملك سيقوده الى التهلكة والى حبـل المشنقة ، فماذا يعمل ؟ كيف يتصرف ؟ انه موقف محرج بحق ! واراد «حسن ممندي» أن يستشير والده ، كان والده رجلا مسنا ، شلت الشيخوخة حركاته وقدماه ، فكان طريح الفراش في البيت بانتظار الاجل المحتوم.واخبر «حسن ممندي» والده بتفـاصيل الحكاية من اولها الى آخرها ، واخيرا المهمة التي وضعها الملك على عاتقه لقتل جميع الاناث بلا استثناء في المملكة . ولما انتهى من روايته فكر والده برهة مرر خلالها اصابعه في لحيته البيضاء الطويلة ، وبعد التفكير . التفت الى ابنه وقال :

- بنيّ ، حذار من قتل نساء المملكة كافة ، ومن الجنون أخذ الكل بجريرة الجزء . أشير عليك بأن تقيم دبكة كبيرة على الطريق الذي يعود منه الملك من رحلته على ان تشارك النسوة فقط في تلك الدبكة ، ولا ريب ان الملك سيغضب ويحنق واذا سألك عن السبب فقل له آنذاك : مولاي ان والدي هو الذي جعلني اتمرد على امرك بشنق نساء المملكة ، ويرجو سماحك له بدخول القصر ليوضح لك السبب .

بعد ايام عدة وحين مضت مدة ثلاثين يوما على سفر الملك ، عاد الملك من رحلته ، والحزن ما برح مطبوعا على قسمات وجهه ظانًا ومعتقدا في الوقت ذاته بأنـه عائـد الى مملكة خـالية من النساء ! ولكن مما زاد حزنه قيام مئات النسوة بالرقص والدبكات التي قطعت عليه الطريق فترة من الزمن ، فكان ان امتزج الحزن لديـه بالحنق والغضب الكبـير على «حسن ممنـدي» وفي سيره وطريق عودته تحـاشى الملك الاختلاط بـالدبكة والنسـاء ، انما انحرف عن الطريق ، فمال وانحرف ، ولما بلغ القصر ، لم يسلم على احد ولم يأبه لكلمات الترحيب التي انطلقت من افراد اسرته ولا سيما الاناث منهم ، انما صاح بغضب كاد ان يهز اركان القصر ، قائلا :

- اليّ «بحسن ممندي» حيا كان أم ميتا ؟

وفي لمـح البصر جيء «بحسن ممندي» الى الملك ، فقـال له الملك :

- أهكذا تعصي اوامري ، اهكذا تستهزىء بي ؟

قال «حسن ممندي» :

- مولاي ، أمرك مطاع على العين والرأس ، ومن يستهزيء بمولاي يقينا ان أمه لم تلده بعد ... مولاي ، إنّ الذي حال بيني وبين تنفيذ امرك هو والدي الذي يرجو مقـابلتك والسمـاح له بدخول القصر !

ولما كان والد «حسن ممندي» رجلا مسنا وكبيرا ، وله منزلة خاصة لدى الملك والقصر ، فقد وافق الملك على اللقاء به والسماح له بدخول القصر ، وأتـوا بوالد «حسن ممنـدي» محمولا عـلى الاكتاف . فدخل الى مجلس الملك وسلّم ورد عليه السلام ، ولما أجلس قال له الملك بنفاذ صبر :

- أحقا انت الذي منعت ابنك من اطاعة أمري ؟ بقتل نساء المملكة .

قال والد «حسن ممندي» :

- نعم ، أنا الذي منعته !

قال الملك :

- لماذا فعلت ذلك ، الا تعلم ان الذي يعصي اوامر الملك او يحرض على عصيانها جزاؤه الشنق والفناء ؟

أجاب والد «حسن ممندي» :

- اعلم ذلك جيدا ولكن هل تسمح لي ان اروي لك الحكاية

التالية ، وبعدها لك ان تأمر بقتلي وقتل ابني .

قال الملك :

- قل ما تشاء .

قال والد «حسن ممندي» :

(.... كنت شابا في مقتبل العمر ، عندما تعرضت المدينة التي كنت أقيم فيها الى محنة قاسية لم يسبق وان شهدت مثيلا لها ، فقد اعتاد شبح مخيف على مداهمة بيوتها واختطاف رجالها وقتلهم في مكان بعيد مجهول وذلك اثناء الليل وبعد غروب الشمس مباشرة ، اذكر انه عندما كانت الشمس تغيب ، كان النوم يأبى التسلل الى عيون الرجال والنساء على السواء وكنت من بين الذين يسهرون في الليالي ترقبا لمجيء الشبح ، وصار للشبح بمرور الايام سلطان على الناس لا يقاوم ، ونسبت اليه حكايات تتضمن افكارا خارقة حتى ان فكرة مقاومته من لدن الناس غدت محرمة . وهكذا راح يفتك بضحاياه ، فتك الذئب بقطيع الغنم الشارد من غير راع او كلاب حراسة . وعندما حل الشبح بزقاقنا وقام باختطاف الرجال وانتزاعهم من بيوتهم ، حان اخيرا يوم القضاء علي واختطافي ، فكنت قلقا بدوري ومذعورا ، لكني خلافا للآخرين فقد اعتزمت على المقاومة ومصارعة الشبح وعدم التسليم اليه ، وفي ذلك اليوم حين غابت الشمس ، تسلحت ، واخذت كل استعدادي لمجابهة الشبح ، فلم يأتي في اول الليل كما ولم يأتي لا في منتصفه ولا بعده ، فخيل الي انه لن يقبل انما استثناني من حملته المميتة ، وكدت اغفو وأنام ، اذ كان النعاس يداعب عيني ، وبين التشبث باليقظة والرغبة في النعاس ، اقبل الشبح كالاعصار وذلك في حوالي الفجر ، كان يمتطي حصانا ابيض وكنت راجلا وعندما رأيته ذهبت للقياه ، فتقهقر وفرّ وغاب في ظلمات الليل . فلم الحق به ، انما بقيت في البيت لا افارقه ، اوبخ نفسي ، كوني فاقدا لحالة التهيؤ القصوى لمثل هذه الحالات ، وفي ذلك اليوم لم اخرج من البيت ، وذهب بي اعتقاد راسخ بأن الشبح لابد وأن يعود مساء ، ولكي ادفع النوم عن عيني بالمرة ، فقد نمت في النهار ، وعند الاصيل افقت من النوم واغتسلت ، كنت اشبه بالمحاصر ، اهتز وارتجف لدى سماع اي صوت او حركة في الزقاق ، وفي الوقت ذاته فقد تملكني شيء من الزهو كلما تذكرت بأن الشبح فرّ من أمامي . ولكي أكون على درجة من الاستعداد عالية فقد احدثت جرحا طفيفا في اصبع لي ووضعت في الجرح شيئا من الملح ، عسى ان يقوي الالم المنبعث عنه من يقظتي واستعدادي ، وهكذا قطعت على النوم والخمول السبيل بالمرة الى نفسي في الليل ، ليس هذا فحسب ، فلكي الحق بالشبح وأنال منه فقد امتطيت حصاني وتسلحت ، وارتأيت ان أظل ممتطيا للحصان داخل البيت وخلف بابه مباشرة ، فالشبح عندما جاء في الفجر كان ممتطيا لحصان ، ومحال أن الحق به راجلا من غير حصان . وامتدت الظلال بعد الاصيل وزحفت الشمس باتجاه الغروب ، ولما زحفت واختفت فأن الحياة فارقت ازقة المدينة وشوارعها وخيم صمت رهيب على الناس ، اما انا فقد كنت عيونا يقظة وعلى أتم استعداد لاستقبال الشبح ، ولشد ما كانت دهشتي كبيرة ، ان الشبح اقبل في اول الليل بل وبعد الغروب مباشرة اذ دفع الباب بعنف ، وما ان رأيته ورآني ، فقد اندفعت بحصاني اليه وشهرت في وجهه سيفي صارخا أن : قف ! غير ان الشبح لم يتوقف انما مضى تحت جنح الظلام يشق الليل ، فركضت بحصاني وراءه ، فخرج من الزقاق وأنا وراءه ، وغادر المدينة وأنا وراءه ، وعبر نهرا فعبرته بدوري واجتاز واديا فاجتزته بدوري وتسلق جبلا فتسلقته وراءه . واخيرا وليل المطاردة يمتد بي ، بلغ الشبح باب كهف مظلم ، فترجل عن حصانه والقى بلجامه الي فارتطم بصدري وقبضت على اللجام . ودخل الشبح الى الكهف وغاب فيه ، تاركا حصانه عندي . ولما كنت غريبا عن المكان جاهلا بخفايا الكهف ، فأني بقيت في بابه واقفا لا افارقه منتظرا عودة الشبح ! وامتد بي الليل ، وكنت ويا لعجبي لحظتذاك ، اسمع صوت صليل السيوف وصرخات متحدية مرصعة بأنين مؤلم مخيف بين حين وآخر ، وادركت ان هنالك معركة حقيقية ، ومع ذلك فأن ما سمعته لم يثنيني عن عزمي ولم يجعلني احيد عن مكاني قيد شعرة . وبقيت وأنا شاهر سيفي وممتطياً لحصاني عند باب الكهف والى جانب حصان الشبح ، واذكر انه عندما خفت حدة الاصوات عند الفجر وتلاشت نهائيا بعد ذلك صرخات التحدي وصليل السيوف ، حل محل ذلك كله هدوء غريب لم يمتد سوى قليلا ، اذ خرج الشبح الذي كان يمسك بعدد من الرؤوس البشرية بيد وباليد الاخرى سيفه الذي اصطبغ بالدم ، وحين رأيت الشبح والرؤوس البشرية في يده وفي يده الاخرى السيف الملطخ بالدم ، شهرت سيفي ورفعته . وصهل حصاني بعد ان وقف على قائمتيه الخلفيتين ، فقلت للشبح وأنا اصرخ في وجهه : هيا أنا على استعداد للمبارزة !

لكن الشبح لم ينبس بشيء ، انما تقدم نحوي وكان ملثما ، وحين تقدم صرخت قائلا : اياك ان تتقدم أكثر والا مزقتك إربا إربا .

آنذاك القى الشبح بسيفه تحت قدمي حصاني فأدخل بذلك شيئا من الطمأنينة الى قلبي ، وحين استقر السيف على الأرض امام حصاني وتلاشى رنينه في الانحاء ، القى باليد الثانية بالرؤوس البشرية فوق السيف امام حصاني ايضا والذي صهل للمرة الثانية وكاد ان يلقي بي أرضا . ولما صار الشبح مجردا من سيفه والقى بحمله من الرؤوس البشرية امامي مد يده الى وجهه وازاح عنه اللثام . آه ، لكم كانت دهشتي عظيمة عندما وقع بصري على وجه فتاة جميلة كادت أن تضيء بحسنها وجمالها مدخل الكهف والدنيا في فجر ذلك اليوم ، وتقدمت الفتاة مني وقالت :

- استطيع من الآن فصاعدا أن أنام وضميري مرتاح فقد انتقمت من قتلة شقيقي الوحيد الذي قتل على ايدي هؤلاء الاشقياء .

وأشارت بيدها الى الرؤوس الملقاة امامي ، ثم اضافت :

- قتلوه غدرا ، وقد سعيت اثناء خطفي لاشباه الرجال في مدينتكم الى ان احضر معي شاهدا الى هذا المكان ، لكنهم جميعا ابوا الحضور معي ، الآك انت الذي تستحق بجدارة الزواج مني ، فهلا قبلت ؟

فقلت :

- قبلت .) .

وتوقف والد «حسن ممندي» عند كلمة «قبلت» وبذلك انتهت روايته ، وحين أتى الى نهايتها تدحرجت دمعة من عينيه على خده والتفت الى الملك وقال :

- مولاي الملك ، ان الفتى الذي اتخذته صديقا لك وأشار بيده الى ابنه «حسن ممندي» هو ابن تلك المرأة الشجاعة العظيمة التي وافتها المنية منذ زمن بعيد لكنها في ذاكرتي ما زالت حية تلهب حماسي وتشد من رجولتي ، واعلم مولاي الملك ، ان النسوة لسن سواسية في الطبع والاخلاق وهناك مثل كردي يقول :

«ژنيش هەيەو ژانيش هەيە»[2] .

واثرت رواية والد «حسن ممندي» في الملك وكل الحضور في مجلسه ، وتألقت الادمع في عيون الجميع احتراما لذكرى المرأة الشجاعة العظيمة أم «حسن ممندي» وعفى الملك عن «حسن ممندي» ووالده وغير رأيه عن نساء المدينة على اثر سماعه لقصة والد «حسن ممندي» وما جرى له مع والدة «حسن ممندي» وحين غابت الشمس في المساء ولف الظلام الدنيا ، خرج الملك برفقة «حسن ممندي» كعادتهما لتفقد احوال الناس والوقوف على الغريب من الاحداث .

هوامش :

1 - حسن ممندي :

أ - شخصية خرافية محبوبة في الحكايات الشعبية الكردية ، تتميز بالذكاء والشجاعة وعمل الخير ، وهنالك العديد من الحكايات التي تبحث في مغامراته ، وتعتبر الحكاية هذه من الحكايات الشهيرة التي تروى عنه .

ب - تنتشر هذه الحكاية على نطاق واسع بين الناس ولا سيما في قرى اربيل . وقد سمعتها منذ زمن بعيد ولا سيما قبل اكثر من 14 عاما مدونة بقلم الرصاص في دفتر طالب في ثانوية ديبكه ، استعرته من مدرس اللغة الكردية الاستاذ الصديق امين محمد محمود الذي يدرس المادة نفسها الآن في اعدادية كردستان باربيل .

ج - وفي اواسط السبعينات وجدت الحكاية مخطوطة بشكل مقتضب لدى الاديب الاستاذ «عمر شيخ الله دشتكي» وهي ، اي الحكاية ، تحمل المثل الكردي القائل «ژن هەيەو ژنوكەش هەيە» ومفاد ذلك ان النسوة لسن سواسية فهناك الصالحات منهن وهناك الطالحات ايضا . ويهدف هذا المثل اصلا الى الرد على بعض المفاهيم الرجعية المتخلفة عن المرأة في المجتمع الكردي ، وقد اورد الاستاذ عمر شيخ الله الحكاية بشكل مقتضب كما اسلفنا لتكون كوسيلة ايضاح لصحة المثل الآنف الذكر .

د - وفي شهر آيار عام 1984 سمعت الحكاية نفسها من السيد «صديق اسماعيل طه» من سكنة محلة «تيراوه» باربيل وموظف حاليا في المديرية العامة لتربية اربيل ، وهو شخص موثوق به ويحفظ العشرات من الامثال والحكايات الشعبية الكردية ، وجاءت روايته ادق واوضح من الروايات التي قرأتها مخطوطة او سمعتها ، فدونتها على لسانه ووضعتها في قالب فني منشور كما هو امامكم .

2 - :

آ - «ژن هەيەوژانيش هەيە» ويورد بعضهم المثل بشكل آخر «ژن هەيەو ژنوكەش هەيە» وكلا النصين يؤديان الى معنى واحد يدحض النظرة الرجعية تجاه المرأة ويكشف عن ان هناك الصالحات من النسوة الى جانب الطالحات .